

طريق السعادة



قال سبحانه في قرآنه الكريم (وَاعْتُوا الصُّيُوتَ مِنْ أَيْوَابِهِا) (البقرة / 189).

ربّما يبدو هذا الأمر بسيطاً وبسيطاً، ذلك أنّ كلّ إنسان يتمتع بقدر من الشعور والإدراك إذا ما أراد أن يدخل بناءً ما كان يكون منزلاً أو دائرة فإنّه يدخل من خلال الباب ولا يعبر الجدار، وهذه القاعدة عامّة لا تنحصر بالمنزل أو الدائرة بل تتعدى ذلك لتشمل كلّ شؤون الحياة. فالحياة والسعادة تشبه بناءً مبنياً بالبن والطين وله أبواب، وعلى الإنسان أن يعرف تلك الأبواب أو لا ثمّ يعود نفسه عليها ثانياً أي يسلك الطريق المستقيم والسويّ لدخول الحياة ومن ثمّ البحث عن السعادة.

وهذه القاعدة العامّة في حياة البشر تحتاج إلى بصيرة لتشخيص السبل الصحيحة لدخول إلى دائرة الحياة لكي لا يبقى المرء خلف جدرانها عاطلاً حيراناً.

إنّ العديد من الناس يقضون أعمارهم خلف الجدران بمنأى عن السعادة مردّدين: "لم نفهم شيئاً من الحياة، إنّها حياة بلا معنى" وهؤلاء يقضون حياتهم حيارى ضائعين وقد تتعاطم حيرتهم فتتحول إلى نوع من التشاؤم والحساسية ومن ثمّ الغرور فإذا بهم يدّعون اكتشاف حقيقة الحياة وزيفها ووهم السعادة وخيالها مؤكّدين أصالة الألم والشقاء، ولأنّ الآخرين لا يتمتّعون برهاقة حسّهم، فإنّهم لا يدركون هذه الحقيقة!.

إنّ هؤلاء أنفسهم لا يدرون انعدام الرؤية لديهم وبقاءهم خلف جدران الحياة وقد قضوا أعمارهم دون أن يعثروا على باب يمكنهم من الدخول.

لقد تصوروا أوّل حفرة صادفتهم طريقاً وعلى أساس هذا التصور الخاطيء كانوا يبنّون عن الطريق الصحيح يوماً بعد آخر فإذا هم يقضون عمرهم في الحفر المظلمة، وعلى حدّ تعبير أحد العلماء: لقد هياؤوا أنفسهم للإحساس بالألم والشقاء فإذا بهم يصرخون ويتألّمون لأقلّ شيء يصيبهم وقد تلبّدت أحاسيسهم تجاه أسباب السعادة.

قال سبحانه: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْذِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَنْفَعِيَنَّ هُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَئِنْ جَزِيَئَنَّهُمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل/ 97).

وينبغي الإشارة هنا إلى أن القرآن الكريم في هذه الآية المباركة لا يعتبر الكفار والمسيئين أحياءً، ذلك أن شرط الحياة الحقيقية والشعور بالسعادة هو الإيمان، وعندما يدرك المرء أن الحياة حافلة بالمعاني زاخرة بالسعادة، فإذا هم يعيشون أوقاتهم دون ألم وشقاء وعذاب.

لقد أوضح الأنبياء طريق الحياة وبعبارة أخرى أشاروا إلى الباب الذي يفتح على الحياة الحقيقية والسعادة.

لقد جاؤوا ليعلّموا الإنسان بأنّ الكذب والخيانة وعبادة الذات والمصالح الشخصية والأحقاد الدفينة ليست طرقاً للوصول إلى السعادة والطمأنينة، إنّ طريق السعادة هو الصدق والاستقامة والإحسان والأخلاق الحسنة، وعمل الخير والعطف، إنّ الإيمان بالغيب ومن ثمّ الإحسان انطلاقاً من ذلك الإيمان هو وحده الذي يهب القلب الطمأنينة والشعور بالسعادة.

وقد ورد في الحديث الشريف: "إنّ الله جعل الروح والراحة في الرضا واليقين والهمّ والحزن في الشكّ والسخط".

واليقين هو الإيمان المتين والثابت بأنّ لهذا الكون مدبّر حكيم وأنّه أرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين، وأنّه لا مفرّ من يوم الجزاء عاجلاً كان أمّ آجلاً، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وأما الرضا فهو الطمأنينة والتسليم إلى حكم الله وفرائضه وأداء الواجبات.

يقول الإمام زين العابدين (ع) في دعاء له: "اللهم صلّ على محمد وآل محمد وبلغ بإيماني أكمل الإيمان واجعل يقيني أفضل اليقين وانته بنيتي إلى أحسن النيات وبعملي إلى أحسن الأعمال".

وهذا منتهى السعادة التي ينشدها الإنسان: طمأنينة في الفكر، وطهارة في القلب، وإحسان في العمل، فالحياة الطاهرة هي الحياة السعيدة.